حرمها الدين والعُرف القبلي وجرّمها القانون.. فمن جعلها مسلكاً لضعاف النفوس

ظاهرة الاختطافات.. خنجرٌ مسموم في خاصرة التنمية..!!

قد تكون سائحاً مختطفاً في ضيافة القبيلة، وتحظى بتعامل لائق وكريم، لكن الكرم لا يعني لك شيئاً أمام جوهرك الإنساني الحرّ، فلحظة إحساسك بكرم الخاطفين تجعلك تحيا شعوراً مأساوياً بكل المقاييس، فابتسامات قراصنة الاختطاف الكرام وتحياتهم، تبارك وصولك مربع الأسر، الذي جعل حياتك رهاناً لحقوق القبائل لدى بعضهم أو لدى الدولة.. حالة ليس لك فيها ناقة ولا جمل، سوى أنك شُغفت بموطنٍ حفلت به السير الإنسانية والتاريخية مؤكدة لك: إن العربية السعيدة هي منتجعٌ طبيعي مفتوح، لتجد نفسك في قبضة وجوه قلبت الصورة رأساً على عقب.. واختزلتها في ابتسامة الكرم، وتلويحة نصل الموت، وشوارب مغبرة بجفاف القسوة.. والأيمان المغلَّظة "إن لم ...ف ...."..

فكيف تحول الاختطاف إلى ذريعة حقوقية، ووسيلة ابتزاز ، عن حق لا تعرف الضحية "المختطفة" منه سوى إنه بدأ شخصياً، وانتهى بالمظلوم، إلى ظالم للوطن والتنمية والمجتمع والقبيلة ؟؟.. هذا التحقيق سيقف باحثاً عن إجابة على هذه التساؤلات.. من زوايا الإنسانية والتنمية والانتصار للقبيلة المغدورة بيد أبنائها..

تحقيق / محمد محمد إبراهيم

■ أكبر أربعة فنادق في سيئون وفندقان في مارب أغلقت أبوابها وسرحت العمالة

بسباطة، وتصرف مقيت، ظاهره الحرص على نفس إنسانية، خضعت الدولة لمطالب الخاطفين، ليكون باطنه، مبتدأ الخسران الكبير لهيبة الدولة.. وبدلاً من أن نضرب بيد من حديد ونخسر مخطوفاً ونربح محاكمة من خطفه، أو القضاء على الخارج عن القانون إن واجه الدولة بتمرد على الحق والعرف والقانون، نسلك درب المراضاة مع بزوغ أول إطلالة لهذه الظاهرة.. لنفتح الباب على مبررات خاطئة استنفدت منا الوقت والجهد والمال.. وحملت -بالتغاضي عن الحق- صاحبه لأن يحكم الموت في رقبة أجنبي عابر سبيل أو سائح رام السعادة لحظات في ملامح وسمعة أرض الجنتين، التي قرأ عنها فاكتشف العربية السعيدة..

الأهم هنا هو الذهاب إلى النواة الأولى التي أخذت منحىً سياسياً وقبلياً باتجاه منازعة الدولة سلطة القضاء والعدل والهيبة، هو ما حدث في 1989م حيث قامت إحدى القبائل اليمنية بأول حادث اختطاف لأجانب بهدف الضغط على الدولة لتفرج عن شيخ القبيلة الذي احتجز على ذمة قضية تأر..ولعجز الدولة عن استعادة الأجانب والإفراج عنهم بسلطة القانون، وكون المسألة أخذت بعداً سياسياً دولياً انصاعت الدولة لمطالب الخاطفين حفاظاً على حياة هؤلاء الأجانب.. هذه الحادثة كانت مبتدأ الطريق أمام القبائل في تحكيم السبيل والخطف، ليضغطوا على الدولة من أجل الحصول على مطالبهم المشروعة وغير المشروعة.. وهنا ظهر الخلل في مسار العلاقة التي تربط الدولة بالمجتمع..فلا الدولة استطاعت أن تحمي حقوق المجتمع من بعضه البعض كمهمة وظيفية لها، ولا المجتمع استطاع البقاء بعيداً عن السلوكيات التي قد تسيىء للجميع وتلحق بالوطن الخسران..لكن غياب الدولة هو المسئول..

استفحال الظاهرة

شهدت فترة التسعينات من القرن الماضي أعتى موجة لاستفحال الظاهرة.. حيث سجلت الفترة "1991 – 1998م"- حسب تقييم مركز دراسات المستقبل الذي ستقراً في منتصف 98 الاختطاف كظاهرة وليدة على سلوكيات المجتمع اليمني لتشهد تصاعداً غير مسبوق، ليصل العدد إلى (116) مخطوفاً. وأخذت الحوادث تتطور وتزداد من عام إلى آخر بشكل ملحوظ، وشهدت الأعوام الثلاثة الأخيرة(-96 97)، والثلث الأول من عام 1998م أكبر نسبة حوادث اختطاف سواء للأجانب من السياح والعاملين في اليمن أو لليمنيين أنفسهم، ففي عام 1996م تم اختطاف حوالي 26 شخصاً وفي 1997 تم اختطاف أكثر من 40 شخصاً، وفي الأشهر الأربعة الأولى من العام 98م وصل عدد حالات الاختطاف إلى 16 حالة".

تصنيف مكامن استفحال الظاهرة في خارطة القبائل اليمنية –حينها- لفت إلى أن أفراداً ومجموعات من قبائل تنتمي إلى خولان وبني ضبيان ومارب وذمار في مقدمة القبائل التي اشتهرت بعمليات الاختطافات خلال تلك الفترة.. وينتمي المخطوفون عموماً إلى (15) جنسية، منهم فرنسيون، ايطاليون، ألمان، هولنديون، بولنديون، امريكان، بريطانيون، كنديون، روس، بلجيكيون، صينيون، شرق آسيويين وعرب، ويمنيون، ومعظم المخطوفين أما سياح (الأغلبية) وأما عاملون في الشركات أو السفارات الأجنبية.

عام الثقافة والسياحة

مطلع أعوام الألفية لم تشهد صفاءً من الاختطافات بل شهدت حوادث دموية إرهابية استهدفت السياح الأجانب بالخطف والقتل أو التفجير والكمائن،وكان 2004م هو عام العسل الثقافي والسياحي إذ شهدت اليمن ثـــورة ثقافية وسياحية عمت أرجاء البلد محولة العاصمة صنعاء إلى متحف جيني متناهي الأفـراح والأعـــراس الـــتـــي احتفلت بمارثون التنوع الثقافي من كل مناطق اليمن، ورسم مجلس الترويج السياحي -حينها- أنصع اللوحات التي كادت أن تتغلب على معطيات الظاهرة التي هددت السياحة الوطنية لسنوات، وأثبت القدرة على تغيير الصورة الذهنية عن اليمن في أوربا وأمريكا وشرق آسيا، ساعده في ذلك اليقظة الأمنية التي حدت من ظاهرة الاختطاف بمناسبة صنعاء عاصمة الثقافة العربية.. حيث أكدت التقارير الرسمية أن أعداد السياح من دول الأمريكيتين واستراليا وآسيا ارتفع خلال عام 2004م إلى ما يزيد عن 58 ألف سائح مقارنة بعام 2003 م الذي بلغ فيه العدد نحو 28 ألف سائح... وفيما انخفض عدد السياح الأجانب الوافدين إلى اليمن بين العام 2000م ونهاية العام 2003م ،بسبب اختطافات السياح والدبلوماسيين ورجال الأعمال التي توالت بعد التسعينات، في الثلاثة الأعوام الأولى من الألفية الثانية، إذ برزت فيها ظاهرة العنف الدموي والإرهاب مفرزة أحداث الهجوم على المدمرة الأمريكية كول بميناء عدن عام 2001م والذي أودى بحياة 17 بحاراً وتفجير الناقلة الفرنسية ليمبورج عام 2002م قُرْبَ سواحل حضرموت..

تأصيل قانوني

يقول القانوني والمحامي سعد الحارقي معبراً عن بداية مسار الانحراف القانوني العقابي للجريمة : الاختطاف جريمة قد تحصل في أي دولة وتحت أي صراع أو خلاف أسري أو جهوي أو غيرها وذلك للوصول لهدف معين ..لكن أن يصبح الاختطاف وسيلة لاستعادة أو أخذ الحقوق من الدولة أو المؤسسة العامة أو الخاصة فهنا تكمن الغرابة والجرم الأكبر، وهو ما وصل إليه الحال لدى بعض القبائل اليمنية من ظاهرة الاختطاف تحت ذريعة الحقوق، لتنتهي المسألة بتدمير البلد.

وأضاف الحارقي: جرم الاختطاف محتمل الحدوث لأول مرة في أي مكان في العالم، ولكنه فرصة ثمينة إذا وجدت الدولة، فيمكن أن يتحول الحدث إلى حدّ يفصل بين الاختطاف كجريمة، وبين المبررات الحقوقية كعذر أقبح من ذنب، في صورة لا تعكس سوى هشاشة القيم لدى قلة لا يعبرون عن أصالة القبيلة، بقدر ما يعبرون عن غياب الدولة كفيصل لكل المعضلات، وناظماً لإيقاع الحياة في المجتمع بالقانون الوضعي أو الشرعي..

الأمن والاختطاف

ما بعد 2004م بداية المسلسل التراجيدي للصورة التي كانت قد تجلت عن اليمن في الخارج، فقد شهدت السياحة في العام 2006م سلسلة من الاختطافات وصلت إلى أربع عمليات في أقل من شهرين من بينها اختطاف 5 سياح إيطاليين بمحافظة مأرب بعد أقل من 24 ساعة من الإفراج عن 5 مختطفين ألمان في شبوة..في الوقت الذي ظلت الدولة معتمدة طريقة المفاوضات وعدم الحسم من خلال القضاء.. وبسبب الاختلالات الأمنية صارت الاختطافات خنجراً مسموماً يطعن خاصرة السياحة والاستثمار والتنمية في اليمن يوماً بعد آخر.. يقول الصحفي محمد السياغي رئيس تحرير مجلة السياحة الصادرة عن وزارة السياحة: إن تفاقم ظاهرة الاختطاف جاءت على إثر الاختلالات الأمنية, وغياب الدولة غير الصورة الجميلة للسياحة في بلاد العربية السعيدة، ليصبح موقع اليمن لدى سياح أوربا والعالم مظللا باللون الأحمر في الخارطة السياحية الدولية ..وكل هذا بسبب الاختطافات التي لم تكن في بدايتها بهذه الصورة البشعة التي يقرأها العالم, فقد كان السياح في البداية يعتبرونها نزهة ضيافة إلى أن حدثت قضية قتل السياح الأسبان في مارب في 2007م..

وأضاف السياغي: لتجد الحكومة اليمنية نفسها في ذلك الوقت أمام منعطف خطير كلفها إصدار قرارات، لا تتيح لبعض المحافظات ومنها مارب والجوف وشبوة تفويج السياح إلا بتصريح وحماية أمنية وأطقم عسكرية لتكون الصورة أكثر سوداوية لدى السياح.. وأصبحت بعض المحافظات اليمنية مغلقة عن السياحة بقرار من الدولة فمارب مغلقة منذ (5) سنوات حتى الآن.. وكذلك الجوف.. والكارثة الكبيرة أن الاختطافات وصلت إلى قلب العاصمة، لتصبح مغلقة بعد حادثة الاختطاف الأخيرة التي جرت وسط العاصمة صنعاء وفي شارع جمال..

بعد دولي

حادثة الاختطاف الأخيرة وسط العاصمة صنعاء تحديداً كان لها بعد دولي بحيث رددت بتذمر كبير كثير من وسائل الإعلام الغموض الذي يلف هذه الحادثة التي استهدفت ثلاثة أجانب هم: مواطن نمساوي، وآخر فلندي وزوجته، قصدوا اليمن لتعلم اللغة العربية في أحد المعاهد المتخصصة بتدريس اللغة العربية في العاصمة صنعاء.وفي وضح النهار حين كانت الساعة الرابعة والنصف من عصر يوم 21 ديسمبر 2012م..لتنتظر هذه الحادثة تدخلاً دولياً لدفع فدية المخطوفين.. بذات الطريقة تناقلت وسائل إعلام دولية جهود الوساطة القطرية التي أدت إلى الإفراج عن المختطفة السويسرية (سلفيا إبراهرت) التي اختطفت من منزلها في محافظة الحديدة منتصف مارس 2012م.. وهنا تكون قضية الاختطاف قد أخذت بعداً سياسياً دولياً، يفسره الكثيرون بوجود عمل منظم لجهات اختطاف محلية..

الدكتورعبدالله الشليف رئيس منظمة رقيب لحقوق الإنسان – والمتخصصة في مناهضة اختطاف الأجانب- حين طرحنا عليه سؤالاً حول نجاح قطر في الإفراج عن المختطف، وإمكانية دعم جهات دولية لجهات تعمل في الاختطاف المنظم قال لنا: ليس لدينا أدلة عن تورط جهات خارجية سواء حكومية أو غير حكومية، لكن أعتقد أن هناك وساطات خارجية تجد استجابة لدى الداخل خاصة عندما دفع الخارج أموالاً بشكل سريع، وهو ما يسهل عملية الإفراج عن المخطوفين مما يضعف أمام اختطاف منظم، والآن أصبح منظماً خاصة من قبل الجماعات المتطرفة لأنه أصبح مستمراً بشكل ملفت وبالذات المطالب التي تتمثل في كل مرة في الإفراج عن مساجين أو دفع فدية..

وحـــول اخـتـطـاف الـمـوطـنـين الفنلنديين والنمساوي أكد الشليف أن المنظمة قامت بـالـتـواصـل مـع الـعـديـد من الجهات للمساهمة في الإفراج عنهم وتحرص دائماً على سلامة المخطوفين وإن شاء الله تكلل الجهود بالنجاح..

وأوضح رئيس منظمة رقيب لمناهضة الاختطاف أن المنظمة سجلت في العام 2012م – وإلى الآن- 7 اختطافات لأجانب، وأكثر من 19 حالة اختطاف لمواطنين يمنيين, والكثير منهم لازال إلى الآن في الخطف بينهم كبار في السن وأطفال.

تبعات وخسائر

يقول مدير مكتب السياحة في محافظة مأرب ياسر الأغبري: الاختطافات مؤثرة جداً، لكن الحادثة الأكثر إيلاماً هي ما تعرضت له السياحة في اليمن من ضربة قاصمة، إثر تفجير معبد الشمس في مارب عام 2007م الذي استهدف 8 سياح أسبان قتل منهم سبعة ونجت سائحة واحدة هي "ماريا".. مؤكداً أن محافظة مأرب منذ تلك حادثة مغلقة حتى الآن بقرار من الدولة..

وأضاف الأغبري: وكان من نتائج ذلك القرار، وما رافقه من حملات تشويه لمارب من قبل الإعلام غير المسئول الذي يركز على السلبيات ولا يذكر الإيجابيات، تدهور قطاع الس؟احة بالمحافظة لدرجة أن فندقين أغلقا من ذلك الحين حتى الساعة وهما فندق بلق؟س مأرب(4 نجوم)..والفندق الثاني هو فندق أرض الجنت؟ن الذي تملكه وزارة الس؟احة ومؤجر لإحدى الشركات السياحية.

من جانبه قال مدير مكتب السياحة بـ(سيئون) سالم الكثيري : إن الحديث عن السياحة في اليمن حالياً ضرباً من الوهم بعد أن تم تدمير السياحة، مؤكداً أن حضرموت تكبدت خسائر كبيرة تقدر بملايين الدولارات، وأن أربع منشآت فندقية كبرى في سيئون أغلقت تماماً بين 3-5 نجوم وهي (سيئون بلازا – الأحقاف –سماح – وادي النخيل – قصر الحوطة)..

وسرحت العمالة بالكامل، إلا من أفراد الحراسة والصيانة وهو ما يعني أن مسلسل الخسارة مستمر، خاصة وأن 42 منشأة سياحية سرحت 50% من العمالة .. الخاصة بها.. ولم يبق سوى النشاط الخدمي للسياحة المحلية، وهذه ليست سياحة فالوافد المحلي يجلس فترة قصيرة بين ساعتين إلى ثلاث ساعات..ويرى الدكتور عبدالله الشليف أن الخسائر كبيرة جداً بالمليارات فالسياحة أصبحت مشلولة تماماً والاستثمارات تراجعت بشكل مخيف وبسبب الأوضاع الراهنة لم يستطع أحد تحديد رقم معين عن الخسائر الناتجة عن عمليات الاختطاف لكنها كبيرة جداً ..والأهم تشويه صورة اليمن أمام الخارج..

القطاع الخاص

صحيح أن التنمية خسرت كثيراً وخسر المجتمع.. لكن القطاع الخاص في اليمن حمل الخسائر الجمة ليس على صعيد بيئة الأعمال والاستثمارات وشتات فرص الشراكة، بل أيضاً كونه أبلى بلاءً حسناً في تأسيس بنية تحتية أساسية في القطاعات الخدمية السياحية لا بأس بها في مناطق المقاصد السياحية أكثر مما تحقق في العاصمة وعواصم المدن الرئيسية .. فقد تراجعت السياحة إلى أدنى درجة الإقبال الذي يؤكد وصول أرباب هذه المنشآت السياحية إلى حال إغلاقها نهائيا..

هذا ما أشار إليه الأخ محمد النزيلي نائب رئيس مجلس الإدارة في مجموعة العالمية للفندقة الذي يقول: إن ظاهرة الاختطاف لم تختطف السياح -فحسب- بل اختطفت من البلد المليارات من المقدرات التنموية الاجتماعية وصولاً إلى تشويه صورة اليمن لدى العالم، وهذه الخسارة لا تقدر بثمن وتحتاج إلى سنين لاستعادة الثقة..

مؤكداً أن خسائر مجموعة العالمية للفندقة كبيرة جداً، انطلاقاً من كون مشكلة العالمية أنها لم تركز على استثماراتها السياحية في العاصمة صنعاء وعواصم المدن الرئيسية إنما ركزت على مقاصد السياحة في البلد وفي المناطق البعيدة ذات المقومات السياحية الأثرية والطبيعية كون هدفها الأهم هو انعاش السياحة.. ومنذ البداية ونحن نركز على نشاط التفويج السياحي إلى المناطق السياحية كمارب وحضرموت والجوف وغيرها..

وأضاف النزيلي: لذلك فقد فاقت خسائرها كل الجهات ذات العلاقة بالسياحة فمنذ ما قبل أحداث 2011م ومؤشر الخسائر في ارتفاع ولكن دعني أضعك في واقع صورة الخسائر التي مني بها قطاع الفندقة في مجموعة العالمية، فستجد أن إجمالي الخسائر بلغ نحو (165) مليوناً و385 ريـالاً، توزعت على خسائر الشركة العالمية للفندقة (36) مليون ريال، فندق بلقيس مارب ما يقرب من (5) ملايين ريال، بينما فندق قصر الحوطة الذي أطلق عليه أحد السياح الأوربيين بملك الفنادق في اليمن، ما يزيد عن (75) مليوناً و(400) ألف ريال ، وفندق شهران (40) مليون ريال، بينما فندق المحويت بلغت خسائره (8) ملايين و500 ألف ريال..

شوهت صورة اليمن بالخارج وأصابت السياحة في مقتل

"7 حالات اختطاف لأجانب و19 ليمنيين خلال 2012م"